

المحور رقم: 03: أثر العلماء في تطوّر البلاغة العربيّة:

***تمهيد:** لقد ساهم في تطور البلاغة العربيّة علماء كثر؛ منهم اللّغويون والنّقاد والأدباء والمتكلّمون، ولمّا كان عددهم كبير ولا تكفيّنا محاضرة أو اثنان للحديث عنهم كلّهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يصعب تصنيفهم فالعالم الواحد لا يمكن تصنيفه؛ لغوي أم ناقد أم متكلّم وذلك للتّكوين الموسوعيّ لدى أغلبهم من جهة أخرى، سوف نخصّص كلامنا على أشهرهم فقط، وعلى أهمّ الإسهامات الكبرى التي أسّست للبلاغة العربيّة عبر عصورها المعروفة.

***أولاً/ (الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر) توفي (255هـ) ، معتزلي بلاغي، ناقد لغويّ، تأثّر بأستاذه "النظام" ووظّف العقل والمنطق في الدّفاع على العقيدة الإسلامية ضدّ حركة الشّعوبيّة التي تطعن في العرب والمسلمين.**

قدّم إسهامات تأسيسية عظيمة نقلت البلاغة العربيّة من الملاحظات النقدية المتناثرة إلى مرحلة التنظير والتّقييد العلمي، ويعدّ كتابه الشهير "البيان والتبيين" الحجر الأساس لهذا العلم، وفيما يلي أبرز الجهود التي قدّمها "الجاحظ" لتطويع البلاغة العربيّة:

1. وضع المفهوم العلمي للبلاغة والبيان:

- وفي تعريف البلاغة: لم يكتفِ الجاحظ بمدح الفصاحة، بل عرّف البلاغة بأنّها "إيجاز في غير عجز، وإطناب في غير خطل"، ورأى أن البلاغة هي "إيصال المعنى إلى قلب السامع في أحسن صورة اللفظ"، كما تطرّق إلى تعريف البلاغة عند الأمم الأخرى كالفرس واليونان والهند، وأبرز من خلال التّعريف فضل البلاغة العربيّة على البلاغة الأخرى.
- مفهوم البيان: وسّع دلالة كلمة "البيان" لتشمل كل وسيلة تُعبّر عن الفكرة وتكشف عن المعنى، وقسّم وسائل البيان إلى خمسة أصناف: (اللفظ، الإشارة، الخط، العقد، والحال أو التّسببة).

2. إرساء نظرية "اللفظ والمعنى":

- الملاءمة بين اللفظ والمعنى: شدّد الجاحظ على ضرورة أن يكون اللفظ مكافئاً للمعنى؛ فلا يكون اللفظ عامياً والمعنى فلسفياً عميقاً، ولا العكس.
- شرف اللفظ: اشتهر بمقولته الدّفاعية عن الصياغة اللفظية "المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنّما الشّأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج...."، مما وجّه الأنظار إلى أهمية الأسلوب الفنّي والصياغة الأدبية.

3. صياغة قانون "كل مقام مقال":

- مراعاة حال السامع: أصل الجاحظ لفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ ورأى أن الخطيب أو الكاتب الذكي هو من يزن كلامه بميزان عقول المستمعين، فيخاطب الملوك بلغة، والعامّة بلغة أخرى، ويميز بين مستويات الخطاب في الجد والهزل.

4. التأسيس لعلمي "المعاني" و"البيان":

- دراسة الإعجاز والأساليب: كان الجاحظ من أوائل العلماء الذين التفتوا إلى دراسة الفنون البلاغية مثل التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، والانتفات في القرآن الكريم والشعر العربي، ممّا مهّد الطريق لمن جاء بعده (مثل عبد القاهر الجرجاني، السكاكي،...) لتقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة المعروفة (المعاني، البيان، البديع).

5. توثيق ونقد النتاج الخطابي والأدبي:

- الجمع والتصنيف: قام في "البيان والتبيين" بجمع خطب الرسول ﷺ، والصحابة، والبلغاء، وأشعار العرب، ورسائلهم.
- النقد التطبيقي: لم يكتفِ بالجمع، بل كان يحلل هذه النصوص، ويظهر مواطن القوة والضعف فيها، ممّا أوجد دليلاً تطبيقياً وعملياً لدارسي البلاغة.

*ثانياً/ (أبو الفتح عثمان بن جني) المتوفى عام (392 هـ)، وهو عالم لغويّ فذّ قدّم إسهامات عبقرية ومبكرة أسست لربط وثيق بين علوم اللّغة والبلاغة، وتجلّى أبرز جهوده في تطوير البلاغة العربية وتوسيع آفاقها في كتابيه الشهيرين: "كتاب الخصائص"، وكتاب "سرّ صناعة الإعراب" في المحاور التالية :

1. إقرار نظرية "شجاعة العربية" وتأصيل المجاز:

- يُعد ابن جني من أوائل من قعدوا لمفهوم "شجاعة العربية"، وهو مصطلح بلاغي يعني جرأة اللّغة العربيّة في الخروج عن القواعد الظاهرة لتحقيق غايات جمالية وتعبيرية.
- توسّع في دراسة المجاز، وأثبت بالأدلة المنطقية واللّغوية أن "أكثر اللّغة مجاز صار في حكم الحقيقة"، ممّا فتح الباب للبلاغيين لفهم اتّساع التعبير الفنيّ.
- قسّم الخروج عن ظواهر الكلام إلى فنون بلاغية كبرى مثل: (الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والعدول والانتفات).
- 2 فضّ النزاع بين اللفظ والمعنى:

- حسم ابن جنّي الجدل التّاريخي حول تقدّم اللفظ على المعنى أو العكس؛ حيث رأى أن العلاقة بينهما علاقة تكاملية وتلازمية.
- اعتبر أن "العناية باللفظ هي مقتضى أهمية المعنى"، فلا قيمة للفظ شريف بلا معنى عميق، ولا يبرز المعنى الجليل إلا بلفظ فصيح وبليغ .

3. ربط الدلالة الصوتية والصرفية بالبلاغة (تصاقب الألفاظ وتناسب المعاني):

- طوّر نظرية بلاغية-لغوية تقوم على (المناسبة بين صوت اللفظ ومعناه) أو ما يُعرف بـ "إمساس الألفاظ أشباه المعاني".
- أصل لـ "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"، وتعني أن تقارب الحروف في المخرج الصوتي أو تقارب البنية الصرفية يؤدي بالضرورة إلى تقارب في المعنى المراد، وهو ما يُعدّ جوهر البلاغة الصوتية والإيقاعية في الكلام.

4. الإعراب كأداة بيانية وبلاغية:

- لم ينظر ابن جنّي إلى الإعراب كقواعد جافة، بل عرّفه بأنّه "الإبانة عن المعاني".
- أثبت أن العلامات الإعرابية هي الفارق الأساسي بين المعاني المتكافئة والملتبسة، وبذلك جعل النّحو في خدمة البيان والبلاغة .

5. التطبيق البلاغي والنّقدي في شرح الشّعر:

- طبق نظرياته البلاغية والبيانية عملياً من خلال (شرح ديوان المتنبي) الشرح الكبير والصغير .
- حظي بإشادة المتنبي نفسه الذي كان يقول لمتعاطي شعره: «اسألوا ابن جنّي فإنه أدرى بشعري مني»، حيث كان ابن جنّي يستخرج الأسرار البلاغية، والوجوه الإبداعية، وحسن تصريح الكلام من الأبيات بدقة فائقة.

ثالثاً/ عبد القاهر الجرجاني المتوفى عام (471 هـ) وهو لغوي ناقد بلاغي متميّز، ويعتبر المؤسس الحقيقي لعلم البلاغة العربية بمفهومها العلمي والنّظري المتكامل، وذلك لأنّه نقل البلاغة العربيّة من مرحلة الملاحظات التّجميعية والانطباعات النّقدية المتفرقة إلى مرحلة التّقعيد المنهجي والنّظري الشّامل، وتتلخص أبرز جهود الجرجاني في تطوير البلاغة العربيّة في النّقاط التّالية:

1. إرساء "نظرية النظم" (حجر الزاوية في البلاغة العربيّة):

وتُعدّ نظرية النّظم الّتي صاغها في كتابه الشّهير "دلائل الإعجاز" أعظم إسهاماته في تطوير البلاغة. مضمونها: أثبت أن فصاحة الكلام وبلاغته لا تكمن في الألفاظ المفردة ولا في المعاني المعزولة، بل في طريقة صياغة الكلمات وتركيبها داخل الجملة وفقاً لقواعد النحو (توحي معاني النحو). تطبيقاتها: درّس الجرجاني من خلالها الخصائص الجمالية والدّلالية للأساليب؛ مثل التقديم والتأخير، الحذف والذكر، والتعريف والتنكير، مبرزاً أثرها المباشر في تشكيل المعنى .

2. التأسيس العلمي لعلمي "المعاني" و"البيان":

وضع الجرجاني اللّبنات الأساسيّة لتقسيمات علوم البلاغة الّتي نعرفها اليوم:

- علم المعاني: نبع مباشرة من نظرية النّظم، حيث ركّز على مطابقة الكلام لمقتضى الحال والتعليق النحوي.
- علم البيان: قعد له في كتابه الثّاني "أسرار البلاغة": وقد درس فيه الصّور الفنيّة مثل التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والتمثيل، ولم يكتفِ بتعريفها، بل حلّل آلياتها النفسية والعقلية والجمالية.

3. إبطال الثّنائية الجامدة بين اللفظ والمعنى:

قبل "الجرجاني"، كان النّقاد ينقسمون بين من يفضّل اللفظ ومن يفضّل المعنى، أمّا هو، فقد ألغى هذا الانفصال؛ حيث رأى أن اللفظ خادم للمعنى وتابع له، وأنّ الجمالية تنشأ من التّلاحم العضوي بينهما داخل السّياق.

4. ابتكار مفهوم "معنى المعنى": قدّم الجرجاني تصوّراً دلاليّاً متقدماً جداً يُعرف بـ "معنى المعنى":

- ويقصد به أن الكلام قد يفيد معنىً مباشراً (الظاهر النّحوي)، ولكن هذا المعنى يقود المتلقي إلى معنى ثانٍ أعمق وأشمل (مثل الكناية والاستعارة)، هذا المفهوم يلتقي بقوة مع الدّراسات الأسلوبية والسّيميائية واللّسانيات الحديثة.

5. تفسير إعجاز القرآن الكريم بمنظور بياني: وظّف الجرجاني كلّ أدواته البلاغية لإثبات إعجاز القرآن الكريم ، وردّ على القائلين بأنّ إعجازه يعود لغرابة ألفاظه أو لصرف الله للعرب عن معارضته (الصرفة)، مؤكداً أن الإعجاز يكمن في نظمه البياني الفائق الذي يتألف فيه اللفظ والمعنى والتّركيب في نسق معجز يعجز البشر عن محاكاته.